من أصول التربية الوطنية في السودان

د. سعيد الخليفة محمد عثمان(*)

أولا: المقدمـــة

تعنى الأمم الراقية بتعليم أبنائها ماده التربية الوطنية ؛ وذلك بهدف إعطائهم فكرة واضحة عن مجتمعهم ؛ الذي ينتمون إليه بُغية تكوين المواطن الصالح المنسجم مع بيئته ، والقائم بوظيفته في تنمية مجتمعه ويعدُّ منهج التثقيف وإعطاء المعلومات عن نشأة الوطن وتطوره من أعرق المناهج التي تنتهجها بعض البلدان في منحنى التربية الوطنية ، لأنّ ذلك يُسهم في بناء القاعدة الأساسية في أصول التربية الوطنية . ويُلاحظ أنه في بلادنا العربية والإسلامية وبصفة خاصة في السودان ، قد أُهملت هذه المادة نتيجة الضعف في الوعي الاجتماعي ، بسبب الفكر الغربي الوافد لمجتمعاتنا بوسائل عصرية مختلفة ومتطورة ، على رأسها وسائل الاتصال و الفضائيات .

إن الهدف الأسمى للدول الاستعمارية الحديثة هو السيطرة ، وفرض نفوذها على الأممْ والجماعات ، لاستلاب إرادة شعوبها ونهب ثرواتها ، وذلك باستخدام طرائق شتى لتفتيت مجتمعاتها وتجزئتها إلى مجموعات صغيرة متنافرة متحاربة ، تسهل السيطرة عليها . ويعدُّ ما حدث في بلادنا السودان من تجزئة بفصل جنوبه عن شماله في التاسع من شهر يوليو 2011 مثالاً واضحاً وعملياً لما يمكن أن يحدث للأمة الإسلامية ، والإفريقية في مقبل أيامها .

وتعدُّ هذه الدراسة محاولة جادة لتبصير أبنائنا الطلاب بالأصول التاريخية للدولة السودانية من خلال سرد أحداث تاريخية وقعت قبل آلاف

(*) أستاذ مشارك – قسم أصول التربية – كلية التربية – جامعة إفريقيا العالمية .

السنين ، شهدها الإنسان الذي عاش في السودان ، وشهد تطورات أحداثه إلى أن نال استقلاله في عام 1956م .

ثانيا : أهداف الدراسة :

1. تسعى هذه الدراسة إلى عرض مبسط لتاريخ السودان ، بهدف بناء قاعدة من المعلومات الأساسية في أذهان الطلاب ، بهدف تبصيرهم بمجاهدات مجتمعهم عبر الأزمان ، من أجل تقوية الروح الوطنية والولاء للوطن ، وتنمية الاستعداد للتعاون والشعور بالواجب ، والبذل والعطاء لصالح المجتمع ؛ وتعمير وجدانهم بحب الوطن .
2. تبصير الدارسين و الباحثين بالمنافذ التي يمكن من خلالها تتبع واستقصاء أصول الأحداث التاريخية في السودان ، ومنها :

أ- الوثائق والمخطوطات وخاصة الوثائق العربية .

ب- الدراسات المعتمدة على الآثار والحفريات للحصول على المعلومات الموثقة عن الأحداث التي وقعت قبل آلاف السنين .

ج- المصادر الإسلامية والعربية والأجنبية .

د- مؤلفات الأجيال المتعاقبة من الكُتاب المختصين بتاريخ بلاد النوبة .

ثالثاً : الأسماء التاريخية للدولة السودانية عبر الأزمان :

إن أول اسم أطلقه المصريون القدماء أيام الدولة المصرية القديمة (3200 ـ 2400 ق . م) على البلاد الواقعة جنوب مصر مباشرة هو (خنث)[1] ومعناها الأراضي الجنوبية ، وقد حددها (رايزر)[2] بأنها تلك الأقاليم الواقعة جنوب مصر الممتدة إلى وسط إفريقيا ، والتي تضم النوبيين والزنوج في الجنوب، وسكان بلاد بنت وبدو الصحراء في الشرق ، والليبيين في الغرب . ومنذ ذلك الزمن البعيد عرفت الدولة السودانية بالعديد من الأسماء ، حتى استقرت على اسمها الحالي ـ السودان ـ .

لقد كان ارتباط التاريخ المصري بالتاريخ السوداني قوياً منذ ما قبل الأسر، كانت تلك المجموعات تنتمي انثربولوجيا إلى جنس البحر الأبيض المتوسط الأسمر[3] ، وهو الجنس نفسه الذي تنتمي إليه شعوب مصر وشمال إفريقيا في ذلك الوقت ، غير أن جنس البحر الأبيض المتوسط القاطن بالسودان قد تأثر بالمؤثرات الزنجية ، التي جاءت من الجنوب وأواسط إفريقيا ، وقد وصل ذلك العنصر الزنجي لمصر نفسها حيث رصد علماء الآثار رسما للزنوج من بين الرسوم الأثرية في مملكة مصر القديمة . وقد أطلق المصريون في تلك الفترة اسم (تاسيتى)[4] أي أرض الأقواس على بلاد السودان ، مما يدل على أن السودانيين كانوا مقاتلين أشداء في الحرب ، لهم مقدرة فائقة على استخدام الحراب والسهام . وقد استمرت شهرتهم كرماة للأقواس ، لا يخطئون الهدف ، حتى عرّفهم المسلمون بهذه المهارة (رماة الحدق)[5] لدقتهم في إصابة الهدف إبان حربهم لجيش المسلمين.

غير أن بلاد السودان بعد عصر المملكة المصرية الوسطى (2080 – 1640 ق.م)[6] حظيت باسم جديد هو (كوش)[7] فقد ورد في مخطوطات ذلك العصر أن ملك الهكسوس الذي كان يحكم شمال مصر أدرك أنه لن يتمكن من فرض سيطرته الكاملة على مصر إلا بمساعدة ملك السودان فكتب له يقول (.. التحية لابني زعيم كوش ، لماذا اعتليت عرش كوش ولم تخبرني ؟ تعال إلي ، أبحر شمالاً ولا تخف)[8] ، ويشير المؤرخ محمد صالح ضرار في مؤلفه: تاريخ سواكن والبحر الأحمر[9] إلا أن اسم كوش يرجع إلى كوش بن كنعان ، الذي تناسلت منه قبائل البجة الأصلية قبل اختلاطها بالعرب ، ويبدو أن بلاد شرق السودان وميناء سواكن المنفذ البحري الوحيد للسودان على البحر الأحمر قد وجدت اهتماما عند فراعنة مصر في تلك الفترة ، ونشطت تجارتهم لبلاد الشرق ، وأرض الحبشة وشرق إفريقيا ، وهو أمر جعل فرعون مصر يأمر بحفر قناة تربط

النيل بالبحر الأحمر[10] ، وهي القناة التي أعاد حفرها البطالسة عندما حكموا مصر لاهتمامهم الكبير بتجارة شرق إفريقيا وبلاد الشرق الأقصى ، ومنها البخور والعاج وبعض أنواع النبات الطبي من شرق إفريقيا ، ومن الهند الأرز واللآلئ والأصباغ والنباتات الطبية والحرير ، كما كثر تعدين الذهب من جبال وتلال البحر الأحمر ، وهذه الأسباب ترجح أن اسم كوش وهو الجد الأكبر لقبائل البجة قد أصبح الاسم الراجح لسكان السودان خلال هذه الفترة من التاريخ المصري .

برز اسم آخر للسودان في خلال تلك الفترة من التاريخ الفرعونى ، هو اسم (واوت) ويفصل الدكتور محمد إبراهيم بكر ذلك على النحو التالى : (أُطلق علي المنطقة الممتدة من أسوان شمالا حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا جنوبا فسميت (كوش) وأصبحت تسمى بالتالي (مملكة كوش)[11] ، ولتبسيط الأمر بدأ المؤرخون منذ انتصارات بعنخي وطهراقا يطلقون اسم مملكة نبتة ثم (مملكة مروي) على الممالك السودانية التي مارست حكمها على البلاد الواقعة جنوب مصر في استقلال تام ، بل إن مملكة نبتة قد بسطت نفوذها على مصر نفسها حتى وصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط [12]

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الأسماء التي وردت للممالك السودانية لا توجد في الوثائق القديمة ، بمعنى أن أهل تلك الممالك لم يطلقوا على ممالكهم تلك المسميات التي أوردها الباحثون . استمرت دورة تاريخ وادي النيل ليبرز إلى الوجود اسم آخر للسودان وهو (إثيوبيا) [13] وهو اسم مشتق من الكلمة الإغريقية (Athiops) وتعني صاحب الوجه المحروق أو الأسود ، واسم إثيوبيا أطلقه الإغريق الذين حكموا مصر منذ غزو الأسكندر الأكبر ، وكانت لهم صلة وثيقة ببلاد السودان والحبشة ، وقد أطلقوا هذا الاسم على جميع الشعوب السوداء التي تعيش جنوبي الحدود المصرية دون تمييز ، مما ترتب عليه غموض

كبير عندما تناقله المؤرخون ، خاصة العرب الذين ساروا على النهج نفسه عندما أطلقوا اسم (السودان) ، أي بلاد السود على كل البلاد الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى.

يروى المسعودي في مروج الذهب ما يلي : (لما تفرّق ولد نوح في الأرض وسار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمّنة بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة والبجة والزنوج ، وسار فريق منهم نحو الغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة وكانم ومركة وكوكو وغانا وغير ذلك من أنواع السودان ، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب ، فصارت الزنوج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج [14] .

وتشير هذه الأسطورة إلى أن جميع السودان والزنج من أصل واحد ، غير أن الزنج ، أوغلوا جنوبا فانفصلوا عن السودان .

أما المقريزي فقد كان أكثر دقة في تفسير السواد الذى اتسم به أهل هذه البلاد وذلك فى قوله : (كانت ذرية حام بن نوح أربعة أولاد هم كوش ومصرايم وقبط وكنعان ، فمن كوش الحبشة والزنج ، ومن مصرايم قبط مصر والنوبة ، ومن قبط الأفارقة أهل إفريقيا ومن جاورهم إلى المغرب الأقصى ، ومن كنعان أمم الشام [15] .

وهكذا نلاحظ أن الكتاب العرب والمسلمين الأوائل الذين كتبوا عن السودان قد فسروا ظاهرة السواد بين شعوب إفريقيا جنوب الصحراء على أساس أنها ظاهرة سلالية ، واعتمدوا في ذلك على علوم عربية قديمة ، اشتهروا بها منها علم الأنساب ، غير أن العلامة ابن خلدون الذى ظهر في القرن الرابع عشر الميلادى قد اعترض على هذا التفسير الموغل فى العنصرية ، وردّ هذه الظاهرة إلى أصلها الطبيعي في قوله (ولما رأى النّسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها ، حسبوا ذلك لأجل الأنساب ، فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من

ولد حام ، وارتابوا فى ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية . وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث ، وأكثر الأمم المعتدلة ، وأهل الوسط المنتحلين للعلوم ، والصنائع والملك والشرائع والسياسة ومن ولد سام ، وهذا الزعم وإن صادف الحق فى انتساب هؤلاء ، فليس ذلك بقياس مطرد ، وإنما هو إخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشة من أجل انتسابهم إلى حام الأسود ، مما أدّى بهم إلى هذا الغلط لاعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالانتساب فقط) [16] ولم يعترض ابن خلدون على تأسيس المعرفة بالشعوب وتحديد هويتها استنادا على النسب فحسب ، بل أرسى قواعد علم جديد هو : (علم دراسة الشعوب) [17]

ذلك لأن الأمم لها مميزاتها الأساسية التى بها يمكن تعريفها ، فهو يرى أن التمييز للجيل (أى الأمة) قد يكون بالنسب كما للعرب والفرس وبني إسرائيل ، وقد يكون بالجهة ، ويقصد بها الأقاليم الجغرافية أو البيئية كما للحبشة والزنج والسودان ، وقد يكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ، وغيرها من الخصائص والمميزات . ونستطيع في هذه العجالة أن نوضح أن ابن خلدون يرى أن السبب الحقيقي لسواد البشرة عند شعوب أهل السودان لا يتصل بالأساطير أو النسب ، إنما هو سبب طبيعي يتصل بالبيئة الطبيعية للأمم والشعوب بين مداري الجدي والسرطان ، وهي بيئة شديدة الحرارة في معظم فصول العام .

أما اسم النوبة فهو اسم حديث نسبياً مقارنة باسم كوش ، وقد عرفت بهذا الاسم البلاد الممتدة من جنوب أسوان شمالاً حتى جزيرة تنقسي جنوباً ، واسم النوبة قد شاع استخدامه منذ القرن الثالث الميلادي [18] .

وارتبط إلى حد كبير بتاريخ انتشار المسيحية في شمال السودان ، حيث أصبحت بالبلاد ثلاث ممالك مسيحية هي النوبة والمغرة وعلوه ، عرفت باسم ممالك النوبة المسيحية . وفي العام 639م بدأ زحف جيوش المسلمين نحو مصر [19] .

وتم لهم ذلك في فترة وجيزة ، ومن ثم بدأت جموع القبائل العربية تتطلع نحو السودان حيث المراعي الخصيبة الصالحة للمرعى ، فبدأ تدفقهم نحو السودان خاصة أنه ليس هناك موانع طبيعية بين مصر وبلاد السودان .

استمر تدفق القبائل العربية نحو السودان زهاء ثمانية قرون ، واختلطوا بسكان أهل البلاد من السود حتى إذا كانت لهم الغلبة على البلاد ظهرت بالسودان الممالك الإسلامية التي اتخذت الدين الإسلامي ديناً لها ، وهي ممالك الفونج والفور والمسبعات .

وفي العام 1821م [20] بدأ الحكم التركي – المصري للسودان ، وبقيام هذا الحكم يبدأ تاريخ السودان الحديث الذي تحده حدود معلومة ، وتقوم عليه دولة مركزية نظامية حديثة ، وتحققت للبلاد وحدة قومية ، وبرزت للعالم الخارجي صورة قوية وواضحة لدولة السودان الحديث . ولكن إبان ذروة الاستعمار الأوربي للعالم بوجه عام وإفريقيا بوجه خاص اندلعت بالسودان ثورة وطنية كبرى ، كانت نموذجاً لثورات الشعوب ضد الاستعمار ، هي الثورة المهدية التي زلزلت كيان المستعمر البريطاني ، ومرغت أنف جيوشه وقادته في الوحل ، ولقي الكثير من ضباط الإنجليز هزائم منكرة على يد قادة المهدي ، ونذكر من أولئك المستعمرين هكس ، وبيكر ، وغردون ، الذين لقوا حتفهم بالسودان .

لم تنس بريطانيا ما حلّ لها من هوان على يد ثوار المهدية ، فتآمرت مع الدول الأوربية الأخرى على السودان حتى تم لهم إخضاعه عام 1898م بالتعاون مع الحكومة المصرية القائمة آنذاك . فقد تم الفتح باسم الحكومة المصرية وبجيوشها ، وجيوش الحكومة البريطانية ، ومن ثمّ رأت الحكومة البريطانية أن تضع نظاماً لحكم السودان لم يسبقه حكم مماثل في القانون

الدولي ، عرف فيما بعد باسم الحكم الثنائي ، وعقدت مع الحكومة المصرية اتفاقية عرفت باتفاقية الحكم الثنائي ، وفي 19 يناير 1899م ، حددت بصورة واضحة معالم دولة السودان الحالية وكانت أهم بنود الاتفاقية [21] .

تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكامنة في جنوب الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

أولاً : الأراضي التي لم تدخلها قط الجنود المصرية منذ 1822م .

ثانياً : الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة ، وفقدت منها وقتياً ثم افتتحها الآن حكومة المملكة والحكومة المصرية بالاتحاد .

ثالثاً : الأراضي التي تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

هكذا بدأ رسم حدود دولة السودان الحديثة في الفترة من (1899 – 1956م) وذلك عبر اتفاقيات دولية أبرمت بين حكومة العهد الثنائي والدول الأوربية الأخرى ، التي كانت تستعمر البلاد المجاورة للسودان ، وهي بلجيكا وفرنسا ثم إيطاليا . وعند بزوغ فجر الثورة الوطنية الحديثة التي ناضلت من أجل استقلال البلاد ، كانت معالم دولة السودان الحديث وحدودها الدولية قد وضحت معالمها بشكل كبير ، ولم يدُرْ حولها أي نزاع أو صراع خلال المؤتمرات الدستورية التي قادت لاستقلال البلاد في عام 1956م .

وقد وضح ذلك في المذكرة الشهيرة التي بعث بها رئيس مؤتمر الخريجين عام 1942م للسكرتير الإداري مطالباً فيها بحق تقرير المصير لشعب السودان ، الذي تضافر مع الإمبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الثانية ، وقدم جنوده أعظم التضحيات في ميادين الحرب ، وكان أهم المطالب التي وردت في مذكرة مؤتمر الخريجين [22] قد جاءت على النحو التالي :

1- إصدار تصريح مشترك في أقرب فرصة ممكنة من الحكومتين الإنجليزية والمصرية بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة، وإحاطة ذلك الحق بضمانات حرية التعبير عن ذلك الحق حرية تامة .

2- إلغاء قوانين المناطق المقفولة ، ورفع قيود الاتجار والانتقال عن السودانيين داخل السودان .

3- وضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية .

4- وقف الهجرة إلى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الإنجليزية المصرية .

5- تمكين السودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية والزراعية والصناعية .

وفى 31 ديسمبر 1955م [23] وافق البرلمان بمجلسيه في جلسة مشتركة على إصدار دستور للسودان ، استمد أحكامه من قانون الحكم الذاتي (1953م) مع إجراء بعض التعديلات اللازمة ، التي اقتضاها وضع السودان كدولة مستقلة ، ومن ثم أصبح السودان جمهورية مستقلة منذ مطلع 1956م ، ليصبح اسم (السودان) وقفاً على أراضى السودان بحدودها الدولية المعروفة دون غيرها من الأمم الإفريقية .

الخاتمـــــة :

في 9 يوليو 2011م ، تم انفصال جنوب السودان مكوناً دولة جديدة باسم (جنوب السودان) ، أما السودان الشمالي فقد احتفظ باسم جمهورية السودان ، لتصبح مساحته 1.882.888 كلم مربع وعدد سكانه 33.419.625 نسمة ونسبة المسلمين فيه 96.6٪ .

المراجـــع

م	المرجـــــع
.1	أحمد سيد أحمد - تاريخ مدينة الخرطوم ، الهيئة المصرية العامة للكتب 2000م ص (13)
.2	المرجع السابق نفسه ص (14)
.3	عبد العزيز عبد الغني - أصول الحضارات الجزء الأول ، دار الفكر ، بيروت 1971م ص (114)
.4	عبد العزيز عبد الغني - المرجع السابق ص (115)
.5	المسعودي – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت الطبعة الثالثة 1978م ص (441)
.6	عبد العزيز عبد الغني - المرجع السابق ص (115)
.7	محمد إبراهيم بكر - تاريخ السودان القديم ، مكتبة الأنجلو المصرية 1971م ص (6)
.8	عبد العزيز عبد الغني - المرجع السابق ص (116)
.9	محمد صالح ضرار - تاريخ سواكن البحر الأحمر ، دار الفكر دمشق 1981م ص (24)
.10	محمد صالح ضرار - مرجع سابق ص (27)
.11	محمد إبراهيم بكر - مرجع سابق ص (7)
.12	عبد العزيز عبد الغني - المرجع السابق ص (121)
.13	محمد إبراهيم بكر - مرجع سابق ص (7)
.14	المسعودي - مروج الذهب - مرجع سابق ص (4)
.15	أحمد الطيب زين العبدين - سيرورة أسم السودان كاسم أمه عند العرب والمسلمين ، مجلة الدرسات العربية الأفريقية ، ص (94)
.16	ابن خلدون - المقدمة ص (80)
.17	أحمد الطيب زين العابدين - مرجع سابق ص (82)
.18	محمد إبراهيم بكر - مرجع سابق ص (8)
.19	مندور المهدى - تاريخ السودان ، مطبعة جامعة الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ص (54)
.20	حسن أحمد إبراهيم - تاريخ السودان الحديث ، دار النشر الخرطوم 1987م ، ص (13)
.21	مندور المهدى - مرجع سابق ص (56)
.22	أحمد خير المحامي – كفاح جيل ، الدار السودانية للكتب الخرطوم 1948م ، ص (22)
.23	محمد عمر بشير – تاريخ الحركة الوطنية في السودان ، دار الفكر ، دمشق 1980م ، ص (237)